من تراب الطريق ! (٦٤٢)

تأنيس الوعي (*)

(١)

ما يزال الإنسان يؤنس كل ما يشعر به أو يراه مما يتصل بوعيه وعواطفه وعقله وذاكرته ؛ لا يفلت من هذا التأنيس شيء حيّ أو ميت ، ولا حيوان أو نبات أو جماد أو قوة أو طاقة ، ولا معنى أو تصور أو فكرة أو مصطلح ، بل ولا وجود ولا وهم ولا عدم .. وهذه سمة بدائية لمطاوعة الآدمى لطبيعة تكوين ذاته التى يميل إلى رد كل ما تحس به أو تفكر فيه إلى ذاكرتها .. وهى سمة باقية حتى الآن فينا جميعًا ..علما بأننا لا نظن قط أننا نشارك على هذه الأرض أو فيها ـ أحدًا أو شيئًا ـ فى الذات أو الوعى والذاكرة الخاصين بالذات .. ويبدو أن السمة المذكورة وإن لم تكن لدينا صادقة ـ فإنها نافعة فى التفكير والحفظ والاستعادة والتعامل والتنفيذ ؛ حتى وإن كان لها مردود سلبى غير ملائم ومعوق أحيانًا أو معطل أو مانع من الرؤية الصحيحة للواقع ، هذه الرؤية اللازمة للمزيد من الرقى والتطور .. وهذا المردود السلبى ماثل فى سائر الأعراف والعادات والمصدقات والعقائد .. وهذه قد اكتسبت مع تطاول الزمان رسوخًا ومكانة فى النفوس والقلوب والعقول .. لا يزولان تمامًا إلاّ باكتساب رسوخ ومكانة لفهم جديد متطور أكثر من هذا المردود صحة وأصدق نظرًا وأليق بالآدمى المتطور عند أغلبية البشر !

(*) المال فى ١٠ /٤/ ٢٠١٢

وعملية التأنيس دائبة مستمرة فى الآدمى مادام حيًّا .. إذ هى أثر مباشر للعملية التى بها نعى .. إذ نحن لا نعى ما تنقله إلينا أعصاب الحس ، وإنما نعى ما يحوله المخ إلى صور واعية قابلة للتعرف والتذكر ، فمضمون وعينا بأسره صور غير مباشرة لأصول لا نعرفها أو لأصول لا وجود لها فى الواقع!

فالأصل والفصل والتصور والافتراض والألفاظ والجمل والعبارات والأصوات والخطوط والألوان والأحجام والأبعاد والأزمنة والمواعيد وما نسميه بالتشبيه والمجاز والأدب والعلم والنثر والشعر والأرقام والإشارات والعلامات والمفردات والمركبات والعمليات والعناصر والإيجاب والسلب والصواب والخطأ والموجود والمعدوم والواقع والخيال ـ كل أولئك ثمار استعدادات وعى الإنسان وذاكرته .. تختلف نسبه من حيث الاتزان والمعقولية والنضج والقدرة على الملاءمة والتطور باختلاف الأفراد والظروف والأزمنة. وكل منها فى حدود نسبته اللائقة ـ أدى فى حدود ظروفه المطلوب منه فى حياة الآدمى . ولكن لا يوجد ـ فيما يبدو ـ بين أجهزة الآدمى أجهزة قادرة بصورة حاسمة ـ وفى جميع الأحوال ـ على الوقوف فى وجه الحماقات والشطحات والاندفاعات ومنع سريانها وانتشارها .. لأن بها طاقات شأن طاقات العواصف والزلازل والأوبئة ـ إذا انطلقت يصعب وقفها ويستحيل ردها !

فوعى الآدمى فى كل وقت لا يقف على أرض صلبة متماسكة ، بل على مجموعة رخوة مفككة من الصور غير المباشرة لما يخال أنه واقعه وواقع

محيطه، بعضها من حصيلة حواسه ، وبعضها من بئر ذاكرته .. ويبدو أنه مضطر لأن يكسوها بخياله ، بيقين يريحه ولو إلى أمد ، لكى يستمر .. وهذا يفتح له أبواب الاعتياد على الاستسلام لأعباء الحياة فيخف عليه حملها . ويجب أن لا ننسى أننا حين نحاول التنبيه إلى خطأ فى فهم أو انحراف فى رؤية أو اعتقاد فى وهم ، إنما نحاول إيقاظ نائمين بما يتبع ذلك من حرمانهم من مزية نومهم ومن إيقاظهم وردهم إلى عالم ملىء بالقلق والكفاح والمعاناة!

وطبيعى أن يكون عالم الآدميين من إنشاء وعيهم حاشدًا بخصائصه وأشواقه ومخاوفه وماضيه وحاضره ومستقبله ، وأن يبرز قدرة الإنسان الهائلة على اصطياد الفروق والأشباه والبناء عليها ، وعلى اصطناع عوالم من داخل عالمه ، منها عالم العلوم وعالم الفنون وعالم الآداب وعالم الاقتصاد وعالم التجارة والصناعة والقانون والطب والهندسة والذرة وغير ذلك من الأنشطة والتخصصات التى تتشعب وتنتشر فيها اهتمامات الآدميين فى أيامنا ، والتى بحجة المزيد من الوقت والإتقان تحصر أصحاب كل منها فى حدودها المعتادة ، ولا يتم التعاون والتدارس بين بعضها وبعض إلاّ فى ظل المستويات العليا من السلطان والثراء ، ولتحقيق السياسات والخطط الوقتية لمواجهة مخاوف واحتمالات تراها تلك المستويات منذرة مهددة لها تزول بتغير الأشخاص أو بزوال الأسباب .. إذ لا تفارق السياسة فى زماننا هذه النظرة المحدودة الموقوتة التى تقود وحدها إلى مقاعد الحكم ولا يدخل فى الحساب الجاد لهذه النظرة اعتبار الخير العام للآدميين كآدميين فى كل مكان وزمان !

من تراب الطريق ! (٦٤٣)

تأنيس الوعي (*)

(٢)

لم يستطع الآدميون فى أى عصر أن يتخلصوا من محاولة تأنيسهم للخالق ـ جل وعلا ، بل ومحاولة سحبه إلى عالمهم والنزول إلى أرضهم وأهوائهم ونصرة أطماعهم وأحقادهم والانحياز إلى صفوفهم فى معاداة بعضهم البعض ونقمة بعضهم على بعض والسعى إلى إفناء بعضهم لبعض.. وقد ساقهم هذا الطبع الضرير إلى الجراءة عليه ـ سبحانه تعالى ، والإدمان على محاولة خداعه، والاعتياد على ذلك ، وحتى صار هذا الإدمان المريض متأصلاً فى صغيرهم وكبيرهم وضعيفهم وقويهم ومريضهم وصحيحهم وفقيرهم وغنيّهم وجاهلهم وعالمهم .. فوجدوا فى أيديهم ومعهم وتحت تصرفهم ما لا حصر له من التسويات والتلاوات والصلوات والعبادات والقرباتْ والصدقات والرحمات والزكوات، ومختلف المعابد والمزارات والأضرحة والمآذن والأبراج والقباب والمحافل والحلقات ، وفى الطوائف والفرق والمظاهر والمأثورات والأوراد والأعياد والمواسم والأقطاب والأوتاد والمشايخ الأحياء منهم والأموات .

و فى تلك الغابات الكثيفة المتشابكة المتلاحمة التى تزاحم كل منها وأجزاء كل منها بعضها بعضًا منذ قرون وأحقاب ، لم يعد يمكن لآدمى الآن أو قبل الآن أن يرى أو يسمع أو يحس طريقه إلى خالقه ـ عز وجل ـ خاليًا خالصًا

(*) المال فى ١٠ /٤/٢٠١٢

صافيًا تام السلامة بريئًا من الافتعال والاصطناع والاستسلام للتقاليد والأعراف والانصياع لتيارات التعصب والتيبس أو بريئًا من المسايرة لأوهام العوام وأشباه العوام ولغوهم وخرافاتهم .. وقد شاركت فى إيجاد تلك الغابات وتنميتها وتغولها وتوغلها بلايين الأفراد إيجابًا وسلبًا .. إما بالاعتزاز بالتصور والرأى والفهم ، وإما بالانتقاء والتأويل وإظهار البراعة فيه ، وإما بالابتداع والاختراع بقصد النفع أو بقصد الإضرار ، وإما انحيازًا إلى المحفوظ المأثور والمعتاد ، وإما بالحرص على ما يؤيد ويمكن لبقاء السلطان والمكانة والنفوذ ، وأعان على ذلك كله وانتهى إلى التعصب له ـ الجمهور الغفير الهائل الذى اكتتب أيضًا فيه بأوهامه هو وأحلامه ؛ أو بسوء فهمه لما سمعه ثم نقله جيلاً بعد جيل فى محيطه !

ومن أساليب عملية التأنيس المشار إليها ، مزج وتقريب العناصر المرئية التى تبدو هامة بعضها من بعض ، بحيث يعبر العنصر الواحد عن العناصر الأخرى .. فتمجيد النبى أو الولى أو القديس أو الإمام أو تمجيد سيرته أو ضريحه أو حديثه أو أثره ـ تمجيد وولاء للدين وللرب. وبغير هذا المزج والتقريب يصعب على أغلبية البشر الانفراد بالرب ـ تعالى ـ وحده دون شفيع آدمى ذى حيثية لدى الله ـ عزّ وجلّ ـ حاضرًا فى ذاكرة الآدمى مقرونًا بمكانته لديه سبحانه ، لا يذكر إلاّ بهذه المنزلة والمكانة .

تلك السلاسل من حلقات التدين ازدادت وتزداد بمرور الزمان عددًا وطولاً وابتعادًا عن أعماق الآدمى؛ واقترابًا من السطح .. وذلك بسبب الكثرة والتزاحم ويسر الاستعادة والتكرار ، وتعود الناس على قبول أمثالها

بلا مقاومة أو روية لضيق أوقاتهم وشدة انشغالهم بمشاغلهم الأخرى ذات الطابع السطحى الغالب أيضًا .. فكل ما لدينا الآن من الحصيلة العقائدية على كثرته الكاثرة ـ مكانه السطح لا الأعماق .. إذ قد فارق الأعماق من أمد طويل .. لم يشعر بذلك آباؤنا أو نحن .. ولذلك تغلغلت فى غالبيتنا الغالبة خيوط الحضارة الحالية اللا دينية فى كل مكان على الأرض ، ولم يعد يقاوم تغلغلها هنا وهناك إلا بالادعاءات والحماقات والمجازفات وبذل الجهود والأموال فيما لا يجدى رغبةً فى الإمساك بالماضى القديم الذى انقضى على غير رجعة ، ولم تعد تربطه بالأحياء الآن رابطة ما فعلية مثمرة . لأن ما بقى حقيقة فى قلوب غالبية الناس من مللهم وديانـاتهم ، مجرد حنين عاطفى ليس له كيان عقلى .. حنين حزين خالٍ من الفاعلية والعافية إلى ماضٍ كان مجيدًا مهيبًا ؛ ثم توالت عليه بغير انقطاع النكبات والكوارث ثم ألوان الإذلال والهوان .. هذا الحنين الحزين هو جماع الأصوات الباقية فى الباقين حتى الآن من المنتمين إلى تلك الملل والديانات .. يصرخ داخلهم صراخ التألم والعجز عن الحركة الحية النشطة الواثقة فى قدراتها وموافقاتها لظروفها وظروف زمانها ومكانها .. ويتجه هذا الجماع فيما يشبه اليأس إلى قوى غيبية كى تمد يدها إلى الإنقاذ من ذلك العجز ومحنه وأزمات ذلك العجز وتلك المحن .. وقد يبدو أن الاقتناع فكريًا بهذا العجز لدى من يعانيه عملية سهلة ممكنة لكل عاقل اعتاد على التبصر فى أموره .. لكن الواقع خلاف ذلك .. لأن العجز الذى نشير إليه غائر عميق شديد الإشارة فى داخل أجهزة الآدميين المصابين به ؛ يحتاج أولاً إلى تغيير البيئة والمحيط إلى بيئة ومحيط خاليين منه ومن آثاره لمدة طويلة يعتاد معها المصاب به على نسيان عاهته وعلى نشأة

عادات أخرى قوية تألف الانطلاق والجهد والجد والمنافسة لتلك الأمور السائدة فى البيئة والمحيط الطارئين عليه ؛ فلا يعود يطيق رؤية الخمول والاسترخاء وقلة المبالاة والتواكل ، بل ويضيق بها ويثور عليها وعلى جوّها ومائها وقد تبعث لديه رغبة جادة فى العمل على تغيير حال بيئته الأولى .

* * *

من تراب الطريق ! (٦٤٤)

تأنيس الوعي (*)

(٣)

يبدو أن التأنيس شيء غريزى فى الآدمى ، وظيفته أن يساعد الآدمى على الفهم المريح والتعامل المقبول مع بيئته البشرية والمادية ، والانتفاع بتصورات فيها جوانب مطمئنة مقبلة تواكب متاعب ومفاجآت واقع حياة البشر ، وتخفف آثارها عليهم وتبعد بهم عن القنوط واليأس ، وله نصيب فيما يشاهد حتى الآن فى اللغات من خلط الناس بين الواقع والخيال والصواب والخطأ والحقائق والأوهام ، وإعطائهم الكليات والعموميات والمعانى والألفاظ وخريطة كيانات ـ أرواحًا ووظائف وقدرات وقوات ذاتية . وإيمانهم يتأثر بترديد اللسان للآيات والدعوات والعزائم والتعاويذ والأوراد وبما تجيء به أو تبعده أو تغيره أو تزيله ، وحملهم ماديًّا لكتابات ومطبوعات ومسكوكات ورموز وشارات ذلك كله فى صحوهم ونومهم يستوى فيه الكبير والصغير والمتعلم والجاهل .

واندفع البشر فى التأنيس حتى صوروا وتصوروا الملائكة والأرواح والجن والعفاريت والمسوخ والشياطين والأشباح والمردة . وامتزج لتأنيس فى المحاكاة والتقليد وفى ذلك المزيج المتشابك الذى يتعذر على الإنسان فض اشتباكاته ـ رصيد أو معظم رصيد الإنسان العادى الفكرى والاعتقادى إليه تتجه ومنه تجيء أحلامه وآماله وسلواه وعزاؤه .

(*) المال فى ١٢ /٤/٢٠١٢

بيد أن هذا التأنيس الذى عَوَّل عليه الآدميون كل ذلك التعويل وتفننوا فى ابتداع الرموز والأسماء والوظائف والمهام لمسمياته ؛ لم يساعد الناس كثيرًا على فهم الكون أو على الاهتمام به أو صحة الاقتراب منه .. فما تزال رؤيتهم حتى الآن له غاصة بالأوهام تلفها القتامة والظلمة ولا يفارقها الضباب الكثيف ؛ وما زال الكون لا يكاد يرانا ولا نكاد نحس به وهو لا يسمعنا لأننا لا نستطيع أن نسمعه بحالتنا الراهنة التى لا نشاهده فيها إلا بصيصًا نلمحه من أبعد البعد .

فهل تقوى عقولنا وعزائمنا واهتماماتنا على أن ترفع عيوننا عن هذه الأرض الصغيرة جدًّا إلى ذلك الكون الهائل ؟ .. إن كل ما كان ويكون منا ليس شيئًا إلا من ثمار وحدتنا هنا على هذا الكوكب الضئيل .. نطور صور ما معنا ونعيد تشكيل أوضاعه . لقد حدث حدث جديد لم يسبق له مثيل ؛ هو أننا بدأنا نخطو بالإنسان إلى الفضاء خارج جو الأرض لتخدم أغراضًا لنا أرضية . فهل ينقلنا الاستمرار فى ذلك إلى أغراض أخرى فى الكون العريض ؟ .. أغراض مخلصة واعية قاصدة عارفة تعبر عن صدق رغبتها فى الاتصال بالكون على وجه دائم التطور والاتساع والتفاهم ؟ إن هذا الحدث يرجع الفضل فيه إلى لغة رياضية متقدمة تكاد تكون خالية من ذلك التأنيس.. متعارف عليها الآن بين علماء الأرض .. تعبر تعبيرًا دقيقًا ما أمكن عن نتائج التجارب والخبرات والمشاهدات الكثيرة المراجعة والإعادة والتصحيح الدائب المستمر .

لا أزعم أن العلم الوضعى البشرى قد انتقل الآن بالإنسان من عصره الأرضى إلى عصره الكونى .. ولكنى آمل حصول ذلك .. وأرجو من ورائه نقلة فى ترقى الإنسان غير مسبوقة فى تاريخه كله .. يتسع فيها عقله ومعه أذواقه وعواطفه إلى غير حد .. فينسى ماضيه الأرضى وما حوى من عادات وأحقاد وأحلام السيطرة فى التسلط والاستعانة بالخديعة والقوة على التسيد والنفوذ والثروة .

ثم لقد تناقصت مساحة التأنيس الذى اعتاده ودرج عليه البشر ؛ وكان ذلك التناقص نتيجة تطور فهم الإنسان وتقدمه بطّراد واتساع مداركه ومعلوماته الموضوعية التى تختزل باستمرار غيبيّاته ؛ وزاد هذا التقدم فى أيامنا ـ بقوة وسرعة ونجاح فاق كل توقع فى كل ما هو قابل للملاحظة والخبرة والتجربة الدقيقة الفاحصة التى لا تعوقها كثرة الاستعادة والمراجعة ولا الاستعداد الدائم للتصحيح والتعديل .. حتى لم يعد فى مقدور الآدمى العادى فى الجماعات المتقدمة مع تعليمه ودراساته الواسعة ، لم يعد فى مقدوره ملاحقة هذه الزيادة فضلاً عن متابعتها مع المتخصصين فى فروعها.. ومع هذا ما زالت أغلبية البشر تردد تأنيساتها ورموزها وشاراتها ونداءاتها وابتهالاتها الغيبية خاصة فى الضائقات والأزمات والنوازل .. لأن الإطار العام للآدمى ـ حتيالآن ـ وهو هذه الأرض التى يشعره كل ما فيها بوحدة وعزلة نوعه ـ لم يتغير بعد ولم تتراخ قبضته الحديدية عن عقل وأشواق ورؤى الإنسان الذى تبين الآن بالتجربة أن فى إمكانه أن يفهم ويشتاق ويرى عن قرب هذا الكون العظيم وأن يحاول التعامل معه لا مع الأرض وحدها .

ومن يتأمل الديانات الكبرى يجدها كلها متجهة إلى خلاص الآدمى من قبضة الأرض .. لأن وجوده عليها هبوط وهوان ومعاناة ومكابدة وكدح وكفاح .. يتعين عليه إنقاذ نفسه منه بالإخلاص التام لربّه .. هذا الإخلاص الذى يستوجب التخلى عن الأنانية والطمع ؛ ويقتضى الالتزام دائمًا بالأمانة والصدق والقنوع والرحمة .

* * *

من تراب الطريق (٦٤٥)

عواطف الإناث (*)

(١)

فى عواطف إناث الآدميين مستويات مختلفة فى عمقها اختلافًا بينًا .. منها ما يمكن عادة إخضاعه ـ لدى الإنسان السليم ـ لنداء الدين أو الضمير أو الخلق أو الآداب أو اللياقات أو حكم المكانة والمقام والطبقة والأصل والأسرة والوسط .. ومنها ما لا سبيل للإنسان السليم إلى السيطرة عليه وإسكاته أو تجاهله .. لأنه عميق جدًّا .. ويبدو أن هذه الضوابط كلها لا تصل إليه متى أثير ؛ لأنه ليس من المألوف إثارته لدى صاحبه فى الأحوال العادية .. فهو ليس وليد الخفة أو الطيش أو الفساد أو الإفساد أو عدم المبالاة أو الجراءة أو القحة ؛ وليس وليد تصدع أو خلل فى العقائد أو المبادئ أو المثل.

وعمق هذا المستوى العاطفى الشديد عمق غريزى كونى ، فيما يبدو .. ليس مدينا بوجوده لترقى الآدمى وتطوره ونظمه وأعرافه وتعاليمه .. ومن هنا كانت إثارته قوية الآثار إلى درجة هائلة ؛ لا قبل لمن تعرضت لها بالانتصار عليها مهما بلغت مقاومتها الواعية من الجد والإصرار والعناد . وربما كانت هذه المنطقة شديدة العمق وثيقة الارتباط والاتصال ببقاء النوع والشوق الأنثوى الدافق غير الواعى أو القابل للوعى ـ إلى مجىء المولود على أجمل ما تتصوره الأم ؛ دون حساب أو التفات إلى ما بناه المجتمع البشرى من الأصول والأنظمة والالتزامات التى ألزم بها أفراده إناثًا وذكورًا .

(*) المال فى ١٧ /٤/٢٠١٢

وقد فطن البشر من قديم الزمان إلى تلك الظاهرة فى الإناث ، ورأينا تناولها فى الأخبار والآداب ، وفى الكتب السماوية أيضًا .. ففى الأخبار الإغريقية القديمة أن فيدرا زوجة ثيزيوس ملك أثينا ، أغرمت بابنه هيوليتوس ، وانتهزت فرصة خروج زوجها إلى الحرب ، فراودت ابنه ، إلاّ أنه رفضها .. ولم تستطع احتمال صده وخيبة غرامها ، فقررت الانتحار ، ولكنها أبت أن تفارق الدنيا دون أن تنتقم ممن رفض غرامها ، فتركت رقعة لأبيه الملك توغر صدره عليه بأنه اعتدى عليها .. فلما عاد زوجها وقرأ الرقعة ، استدعى على ابنه آلهة البحر ونفاه ، فسخرت هذه وحشًا ـ كما تقول الأسطورة ـ اعترض مركبه فاصطدمت بصخرة ، وقتل هيوليتوس لقاء صده لفيدرا الآثمة التى أغرمت به حبًا ، وطاش صوابها برفضه . وقد صور يوربيدوس وقائع هذه المأساة فى تراجيديا «هيوليتوس» فى عام ٤٢٨ قبل الميلاد ، وأعاد راسين تصويرها فى تراجيديا " فيدرا " ـ فى القرن السابع الميلادى (١٦٧٧ م) .

وفى مصر تعرض يوسف عليه السلام لمثل ما تعرض له هيوليتوس فى القصة الإغريقية ، فراودته امرأة العزيز ، وروى العهد القديم فى الإصحاح التاسع والثلاثين من سفر التكوين تفاصيل هذه المراودة وامتناع يوسف عليه السلام .. وجاء فى القرآن المجيد ، رواية لهذه القصة :

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ

مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ* فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ »
(يوسف ٣٠ ـ ٣٥)

وهذه الآيات القرآنية غاية فى التنبيه إلى المستويات مختلفة العمق فى عواطف الإناث ، وفى بيان أنه فى المستوى العادى المألوف ؛ قد توجد الميول والاشتهاءات الطارئة الخالية من الرزانة والاتزان ؛ كما قد توجد الاتجاهات المبتسرة المستخفة ومعها ـ من جانب الأخريات ـ الأحاديث والشائعات وألوان المكر والثرثرة الملازمة لترفهن ولعبهن وعبثهن ؛ وأنهن حين يصدمن بمشاهدة المستوى العاطفى العميق جدًّا يعرفنه ويسلمن به وينسين العبث والثرثرة والتأله والملامة !

* * *

من تراب الطريق! (٦٤٦)

عواطف الإنــاث (*) (٢)

اعتاد الآدميون من أقدم الأزمنة على ألا يلتفتوا فى أنظمتهم وتقاليدهم وأعرافهم إلى تلك المستويات العميقة لدى النساء ؛ لندرة ما تثيرها فى سير الحياة العادى ، وغلبة اشتغال النساء بالتزين والتجمل واتخاذ أسباب الزينة وإبداء المحاسن لاصطياد الموسر لتوفير الترف أو شىء من الحياة المترفة التى تتيح فرص ذلك .. بلا كثير اهتمام بسن الرجل أو حظه من الجمال البدنى والخلقى . وأضافت التقاليد فى مجتمعات كثيرة حق القرابة من الذكور فى قران الإناث وتقديمهم على الغرباء أيًّا كانت مزايا هؤلاء .

واعتاد عموم الإناث على تلك السنن لآجال وعصور طويلة جدًّا .. حتى كاد جنسهن يفقد الانتباه كلية إلى أعماقهن .. تفضيلاً وإيثارًا للمظهر والمشاهَد والمشهود الذى يستوقف النظر ويسترعى الانتباه والإعجاب . وما زال ذلك غالبًا فى أيامنا ومجتمعاتنا ـ برغم شيوع تعليم الإناث كالذكور ومشاركتهن لهم فى كافة الأعمال والمهن والفنون والحرف والدخول ، فلم يؤد بهن ذلك بعد ـ إلى اكتشاف أعماقهن والالتفات إليها التفاتًا جديًّا ، التفاتًا لا يصرفه الجرى وراء الحرص على اجتذاب العيون ومباراة الأخريات فى ذلك المسعى السطحى الوقتى الذى يستدعى باستمرار مع تقدم العمر ـ المزيد من القلق والجهد والتكلف والكلفة ! وربما تغير ذلك فى المستقبل مع اطمئنان الإناث إلى وضعهن الذى ما يزال جديدًا ؛ والذى يتيح

(*) المال فى ١٨ /٢٠١٢/٤

لهـن فـرص الإسراع فى العنـاد والتحـدى والاسـتخفاف بقيمـة الأسرة والاستهانة بما عليهن للوفـاء بحقـوق الأولاد الـصغار .. وهـو مـا أدى إلى صيرورة الزيجات الآن هشة ضـعيفة التماسـك لا يبكـى عليهـا طرفاهـا ولا يروعهما إنهاؤها . وهذا نوع من الخلل عارض فى المجتمع .. لأنه إن اسـتمر يؤدى إلى انحلال المجتمعات وانهيار الحضارة القائمة حتى الآن على الأسرة والزيجات .

وإذا كانت الشابة تميل بفطرتها إلى الشاب ، فإن أعرافنا تتجاهل الفطرة، ولا ترى بأسًا فى أن يبنى الكهل أو الشيخ بالشابة أو المراهقـة إن كـان عنـده لين العيش الذى ليس لدى الشاب .. وهو حـل نفعـى بـشرى لا يخلـو مـن ضرر أو خطر تنكره الطبيعة ؛ ويأسى به وله الزوجان مع الوقت حتمًا . ومن اللاَّفت أن يحدث ذلك مـن آدمـى ذى وعـى واختيـار وإرادة يتحـدى بهـا الفطرة ويتجاوز أحكامها إلى ما يتصور أنه الألـين أو الأشـهى أو الأحـسن والأنفع ، مع أن نجاح هذا التصور قصير العمر ، يجترئ عليه الآدمى ما دام ذلك قابلاً للتكرار وإعادة متعة وقتية تساوى فى رأيه المجازفة مـن أجلهـا .. ويبدو أن ماضينا أو حاضرنا يتابع ويتبع فى معظم تـصرفاتنا هـذه الـسياسة الانتهازية ؛ ولا يريد الإنسان أن يتحول عنهـا ؛ لأنـه يـدين لهـا بالقليـل أو الكثير من ترقيه وتطوره وحضاراته .. وقد جـرب أن انتـصاره عـلى ظـاهر الفطرة يقرب بينه وبين بعض الثـدييات ؛ عـلى حـين أن اسـتخدامه لوعيـه وإرادته واختياراته يميزه عليها تمييزًا تتسع بـه المسافة بينهـا وبينـه بـاطراد واستمرار. وهذه الميزات فى تركيبهـا ـ أصـالة ـ امتزاجـات النفـع والـضرر واحتمالات الصواب والخطأ على نحـو دائـم دوام النـوع الإنـسانى بتركيبـه الذى عرفناه من ماضيه وحاضره .. ونسب هذا التركيب تختلـف تفاصـيلها

باختلاف الأفراد وأحوالهم ؛ وإن تكن متشابهة فى مجموعهم وإجمالهم .. وربما كان فى هذا الاختلاف بعض أسباب اختلاف حظوظ ومقادير البشر ، وتفسيرٌ للهفة الإنسان إلى معرفة حظه مقدمًا ، وتفسيرٌ لتفاؤله وتشاؤمه فى تعلقه بأشياء أو أشخاص ـ أو نفوره من أشياء أو أشخاص ، وتعرضه لما يدعوه للإحساس بالقلق على من يجب وما يجب ، وقلة اطمئنانه لما فى الغيب من المفاجآت . وهو ما يدعو الآدمى إلى التدين أو ما يشبه التدين لتسكين النفس وإيكال مخاوفها إلى عناية جهة أخرى سواها يدين لها الآدمى بقدر من الطاعة مقابل حمايتها إياه من خوف الأغيار والأخطار التى ليس لها حصر .

وقد لوحظ أن الشعور بالرغبة فى التدين يسترخى حين يسود المجتمع الرخاء والأمان ، ويشتد فى أوقات الضيق والأزمات والقلاقل والفتن ، كما أن الشعور بتلك الرغبة أكثر ظهورًا فى الإناث منه فى الذكور وأشد لديهن إمعانًا فى الخيال والوهم .. وربما كان ذلك ترجمةً رمزيةً للأسرار الكونية التى خصت بها الأنثى فى سهرها الواضح الغامض على بقاء الإنسان ودورها الإرادى واللا إرادى فى وجود الأسرة والمحافظة على استمرار وجودها .. وليس كل ما تأتيه الإناث من الاهتمام بالمظهر وإبداء المحاسن ومن الشوق والتكلف للنعومة والفطرية ـ ليس كله نزقًا وخفة ، إذ وراءه إحساسهن بتلك الأسرار الكونية التى لا يفطن إليها غالب الذكور .. إذ لا يحسب هؤلاء حساب أن الكون أو نواميسه لا تلتزم بما يلزم الآدمى من الأصول والأعراف والأخلاق .